

رحلة موسى أف أمستان إلى فرنسا

ترجمة لمقال بول باندولفي**

Moses Ag Amastan's Trip to France

د. زينب التومي*

جامعة تمنراست، (الجزائر) toumi356@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/04/11 تاريخ القبول: 2022/07/31 تاريخ النشر: 2022/09/30

ملخص:

الورقة البحثية عبارة عن ترجمة لمقال بعنوان: "رحلة موسى أف أمستان إلى فرنسا" لمؤلفه بول باندولفي وقد صدر في مجلة الصحراوي le Saharien في العدد 219، الثلاثي الرابع 2016، حاول الكاتب الكشف عن أهداف وأبعاد رحلة موسى أف أمستان إلى فرنسا وهو باحث أكاديمي فرنسي يهتم بعلم الأعراق أو الأنثولوجيا وله عدة كتابات عن منطقة الهقار تتميز كتاباته بقدر كبير بالموضوعية، يتطرق في مقاله إلى كيف تم التخطيط للرحلة وأهدافها ومدى تأثيرها على شخصية موسى أف أمستان، وتناول برنامجها ورد فعل موسى إزاءها وحاول معرفة هل حققت الرحلة أهدافها واعتمد في ذلك على الأرشيف الوثائق الفرنسية ومرسلات شارل دي فوكو، وما ورد في الصحف الفرنسية التي تابعت الرحلة، حاولت تقديم المقال باللغة العربية للقارئ العربي بالتركيز على ترجمة النص بدون تعليق أو إضافة مع الإبقاء على الهوامش والإحالات الأصلية مع تجنب مناقشة أفكار المؤلف.

الكلمات المفتاحية: الهقار، رحلة، موسى أف أمستان، شارل دي فوكو، فرنسا.

** أستاذ في جامعة Montpellier III, Paul Valéry بول فاليري - مونبيلي III ، مختص في علم الأعراق-فرنسا.

* المؤلف المرسل

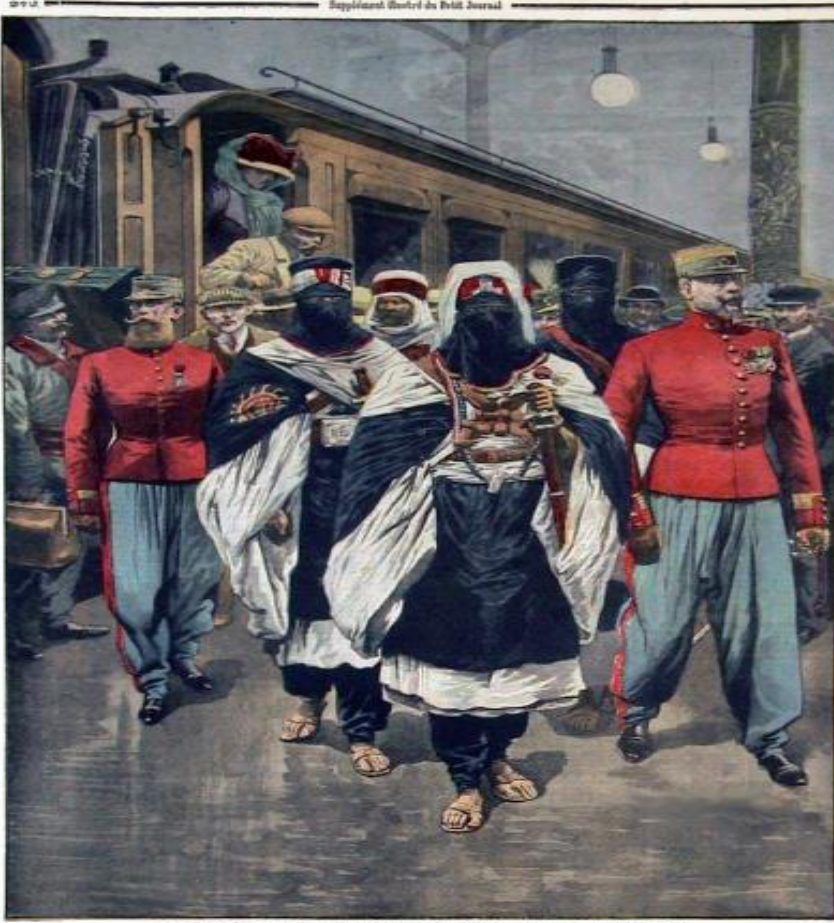
Abstract:

The research paper is a translation of an article entitled: "Moses Ag Amastan's Trip to France." Written by Paul Pandolfi and it was published in the Saharan magazine "le Saharien" in the Issue 219, 4th Quarter, 2016. The writer tried to reveal the goals and dimensions of Ag Amastan trip to France. He is a French academic researcher interested in ethnology where the writer touched on how the trip was planned and its objectives And the extent of its impact on the personality, Moses and dealt with the program of the trip and Moses reaction from the trip, and He tried to find out whether the trip achieved its goals and He relied on the archive of the French documents and the correspondence of Charles de Foucauld, and what was mentioned in the French newspapers that who followed the trip.

Keywords: Hoggar, Moses Ag Amastan, Charles de Foucauld, Trip, France.

1. رحلة موسى أف أمستان إلى فرنسا:

في مطلع أوت عام 1910 وصل موسى أف أمستان زعيم كل أهقار إلى محطة ليون Gare de Lyon في باريس Paris بصحبة شخصيتين أخريين من كبار الأهقار وهما سوسي أف شيكات ووئي أف المنير وتبين صورة جريدة «بوتي جورنال» «Petit Journal» التي غطت الحدث جنديان فرنسيان رافقا البعثة في رحلتهم على التراب الفرنسي وهما لابرين Laperrine ونيجير Nièger.



ARRIVÉE A PARIS DE MOUSSA AG AMASTANE
Amenoukal des Touareg Hoggars

وصول موسى أف أمستان إلى باريس أمينوكال طوارق الأهقار

بعثة الطوارق (وفقا للاسم الرسمي) كانت قد هبطت من شارل رو Roux Charles في 6 أوت في مارسيليا Marseille، وستمكث البعثة في العاصمة الفرنسية لأكثر من شهر، ولن يعود موسى¹ ورفقائه حتى 16 من سبتمبر لمدينة الجزائر La Ville d'Alger للعودة إلى الجزائر.

تجسد رحلة زعيم الطوارق إلى فرنسا فكرة تعود لعدة سنوات مضت. بعد موافقة السلطات في الجزائر وباريس على هذه البعثة، يتضح أن كل من لايرين وجماعته، وكذلك الأب دي فوكو² كانوا يرغبون بشدة لوصول هذه البعثة.

2. مشروع قديم بدأه شارل دي فوكو Charles de Foucauld :

منذ أول لقاء بين موسى والأب دي فوكو في (إن أوزل) في جوان 1905 كان هناك حديث حول هذه البعثة، قال دي فوكو في مذكراته التي لخص فيها مقابلاته مع زعيم الطوارق: «باختصار، موسى شخص طيب ومسلم تقي، لديه أفكار ويحب الحياة، لديه صفات المسلم المنطقي، وفي نفس الوقت منفتح الذهن. ولديه رغبة كبيرة في زيارة الجزائر العاصمة وفرنسا» (1993: 178).

¹ موسى أف أمستان: 1904-1921، الأمنوكال التاسع عشر لكل أهقار أي أهل الأهقار من قبيلة كيل غلا ورث الحكم عن طريق أمه ابن تاهات بنت تمخلو ست بنت أماهيس بنت كله، دعمه الفرنسيون ورفضوا تعيين آتيسي، بعد أزمة القيادة بعد تعيين قائدتين آتيسي أف أملال ومحمد أف أورزق في عام 1900، وبعد حالة الفوضى بسبب الانقسام، وهزيمة معركة تيت عام 1902 تم تعيينه ووقع معاهدة الاستسلام في عام 1904، كانت وفاته في ظروف غامضة. ينظر: حسن مرموري، التوارق بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية في بداية القرن العشرين دراسة سوسيو تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية جامعة الجزائر 2001-2002، ص-ص 94-95.

² ولد دي فوكو في ستراسبورغ 15 سبتمبر 1858. دخل الجيش الفرنسي (الافريقي)، ووصل إلى رتبة ملازم أول. وعمل في أنحاء الجزائر: تلمسان وعنابة وسطيف، وغيرها. وكان قد تخرج من مدرسة سان سير. ودرس اللغة العربية. وتعرف على مسالك الصحراء وسكانها. كما اهتم بالمغرب الأقصى، ترك الجيش، تعلم لهجة الطوارق، 1897 كان في روما زار المشرق اسكندرونة والناصرية من خلال جمعيات دينية انخرط فيها وكتب الكثير عن الطوارق ولغتهم، طلب منه الجنرال لابرين الإقامة في الهقار لكسب النفوذ لفرنسا هناك ويكون الصلة بين السلطات الفرنسية، وقتل عام 1916م على يد حارسة. لمزيد من التفاصيل ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، بيروت، دار الفكر الإسلامي، ص-ص 133-135.

عقب هذا الاجتماع الذي رسخ مبدأ التثبيت للأب في الأهقار (بندولفي 1997)، شرح فوكو اقتراحه في رسالة طويلة أرسلها إلى الأب شارل فيرين Charles Guérin في 13 حويلية 1905: «يرغب ألبريك³ Albéric كثيرا في زيارة الجزائر العاصمة وباريس أيضا... لهذه الرحلة مزاياء... يسهل فهمها... وسيكون لها عيوب: إذ سيصاب بخيبة أمل إذا لم يحظى باستقبال السلطات ولو حظي باستقبال فسيظن نفسه في مرتبة أكبر مما هو عليه حقيقة... في كل الأحوال من الصعب أن يتم إرضائه... من جهة أخرى، لقاء رجال الدين، زيارة مواقعنا الدينية، معرفة آبائكم، وأخواتكم، سيكون ممتازا، هو يتوق إلى رؤية الجزائر العاصمة وباريس وفرنسا وسيكون ممثنا لمن سيساعده لإقامة هذه الرحلة. لا أستطيع قيادة الرحلة ولا حتى دفع ثمنها. إذا كنتم ترغبون في استضافته في ميزون كاري Maison-Carrée، ودفع ثمن الرحلة سواء في الجزائر العاصمة أو في باريس، يمكنني أن أرسل له مقترحاتكم لاستضافته ومرافقته أو إرسالها إلى ميزون كاري، إما أن أحضرها معي هذا الخريف أو أتركها لوقت آخر ... إذا أردتم قبلتم الدفع، عليكم: 1° دفع كل تكاليف الرحلة، لأنه لا يملك أي مال، 2° وضعوا في حسبناكم أنه سيصطحب على الأقل شخصين، الخوجة (أمين السر والمترجم) وخادمه أو ربما يصطحب معه ثلاثة أشخاص... الاستضافة بسيطة: غرفة له وغرفة لمرافقيه وكسكس وحليب وشاي. إنه شخص بسيط وذكي وعقلاني، المشكلة هي أنه سيرغب بأن يكون على اتصال بالسلطات... انظر ماذا تريد أن تفعل ... إذا عرضت عليه، (لو كنت مكانك ورغم المضايقات كنت سأستضيفه، استضافة مخصصة للمرابطين، في زاوية دينية، بعيدة عن العالم، هذا ما نعرضه) سأدفع الأتعاب... إذا لم يقبل فسيظل عرضا سخيا، وإذا قبل، فسوف يكون عرضا، على ما أعتقد، على حسب شخصيته، وسيربط معك علاقة صداقة دائمة وقوية معك. إذا أردت تقديم هذا العرض له، فأرسل لي برقية في أقرب وقت ممكن إلى أدرار عبر تيميمون: ضع على العنوان سأكون سعيدا باستقبال ألبريك في الجزائر العاصمة وباريس - أو في الجزائر العاصمة وليس باريس... حتى أستطيع دفع تكاليف الرحلة في أقرب وقت ممكن وحتى أعرف طريقة دفعها.

³ ألبريك: منذ أبريل 1905، استخدم دي فوكو والأب فيرين في مراسلاتهما لغة مشفرة لتحديد الأشخاص والأماكن (انظر 1998:334). في رسالته المؤرخة 13 جولية، نوه دي فوكو في مراسله من أنه سيسعي موسى من الآن فصاعدا ... ألبريك.

إذا قدمت هذا العرض، فإني أفضل أن تقدمه بالكامل وأن تعرض الذهب ليس للجزائر فحسب، بل باريس أيضا: سيكون منظر عائلاتنا جيدا له. لا وجود للعائلات هنا إلا نادرا خلاف عند العرب، مشهد بلد مسيحي بالكامل، بدون عرب، سيكون جيدا بالنسبة له: لا شيء يمنعك من التسكع لبضعة أيام مع الأصدقاء، عند أختي، على سبيل المثال، في الريف، وبضعة أيام في نوتردام/دي نيچ Notre-Dame des-Neiges. »



موسى أف أمستان في سيارة، وسيلة نقل يستمتع بها بشكل خاص. لاحظ كيف هو مُغطى. وهذا ليس فقط لأنه يرتدي زيه التقليدي، في الحقيقة، رغم أننا في شهر أوت، ولا برد! رغم أن الجو بالفعل، في الأوقات العادية أكثر برودة في باريس منه في تامنغست إلا أن صيف عام 1910، شهد انخفاضا معتبرا في درجة الحرارة. وتشير السجلات الرسمية للأرصاد الجوية إلى أنه خلال شهر أوت 1910 وصلت درجات الحرارة إلى قيم لم تسجل منذ عام 1851.

تخيرنا هذه الرسالة عن أحد جوانب شخصية فوكو أكثر مما تحكي لنا عن رحلة موسى القادمة. بعد أن أدرك فوكو أن هذه الرحلة ستكون مفيدة لزعيم كل أهقار، فقد بذل قصارى جهده حتى لا يترك فرصة لمتلقي رسالته للاختلاف مع آرائه. فتارة يستخدم الشرط، وتارة يقترح أن يحكم السيد فيرين على ما إذا تفكيره واقعي، ثم يضيف: «لو كنت مكانك ورغم المضايقات كنت سأعرض عليه...»

وبالمثل، ترك لمراسله حرية الاختيار بين رحلة إلى الجزائر العاصمة أو إلى باريس أيضا. وهنا لم يسعه إلا إبداء رأيه بحزم: «إذا قدمت هذا العرض، فإني أفضل أن تقدمه بالكامل وأن تعرض الذهاب ليس للجزائر فحسب، بل باريس أيضا» نقطة أخرى لافتة للنظر: وهي نوع الرحلة المخطط لها. على الرغم من أن موسى أصبح شخصية سياسية معترف بها، إلا أن شارل دي فوكو -بسذاجة - يحب تخيل رحلة تبعد كل البعد عن كونها رحلة رسمية. لذلك اقترح أن يُستقبل موسى بكل تواضع وأن يستضيفه رجال الدين ويمكنه خلال فترة إقامته أن يزور العائلات المسيحية (بما في ذلك عائلة أخته) والمؤسسات الدينية مثل نوتر دام دي نيج، ويجري كل ذلك بينما تحدثم النقاشات في فرنسا حول قانون الفصل بين الكنائس والدولة. لقد قطعت فرنسا علاقاتها الدبلوماسية مع الفاتيكان منذ عام 1904 وفي العام الموالي، صدر قانون الفصل بين الكنائس والدولة وسيصوت عليه في الغرفتين. فهل هذه سذاجة من فوكو أم عدم وعي؟



التقطت هذه الصورة أمام الدائرة العسكرية في باريس. نُشرت في أوت 1910 وكان مكتوباً عليها: «زعيم الطوارق ومرافقيه في باريس»

3. رحلة منظمة:

في 23 أكتوبر 1905، وقبل أن يقابل موسى لايرين، كتب فوكو مجموعة من النصائح له على مذكراته. وطالب فوكو في مناسبتين أن «رحلة الطوارق إلى فرنسا لن تكون مجرد رحلة عادية بل ستكون زيارة لفترة من الزمن». أمّا فيما يخص موسى، الذي يبدو أكثر حزمًا: «يجب [...] على موسى أن يكون على علم: (بالرحلة القادمة إلى فرنسا؛ والرحلات المتكررة وروابط المودة التي تجمع منطقة توات وفرنسا).» وأهمّ من ذلك، يجب الحرص على تحديد نوع الرحلة التي يحبّها زعيم كل أهقار:

«ستكون الرحلة إلى الجزائر العاصمة وإلى باريس خاصة مفيدة لموسى، ليس للحصول على شيء، ولا لجعله مشهوراً لدى السلطات، بل ليتعرف على فرنسا والفرنسيين الذين يتعين عليه التعامل معهم، وحتى يساعد ذلك في توسيع عقله والانفتاح على العديد من الأشياء. أنا أشجعه أيما تشجيع لإقامة هذه الرحلة". (1986: 56-59)

وبعد سنتين، واصل الأب فوكو سعيه لجعل رحلة موسى إلى فرنسا حقيقة، كما يتضح ذلك من رسالته إلى *الرائد لأكرو* / Commandant Lacroix المؤرخة في 21 نوفمبر 1907. بعد أن أعلن موسى أنه قرر الاستقرار في تامنغست، لبناء منزل ومسجد وتطوير الثقافات، عاد فوكو إلى الاهتمام بإقامة هذه الرحلة، وأصرّ على الاهتمام بتحديد نوع الرحلة التي يتمناها لمحميه الذي يتولّى الإشراف عليه.

«هو رجل مثير جدا للاهتمام. إننا مندهشون من هذا الانفتاح المصاحب لجهل الكثير من الأشياء، سيكون من الجيد أن يذهب في رحلة إلى فرنسا، على أن تكون رحلة جادة من أجل تعليمه ليأخذ فكرة جيدة عن الأشياء، وليس الذهاب في رحلة سخيطة تنتهي بمنحه تكريما سخيما يظهره كفضولي غبي يرغب في رؤية صالات الجعة والأصوات الصاخبة، إلخ... يستحق أن تكون هذه الرحلة مفيدة له بفضل جدارته. إنه لأمر مدهش بالنسبة لرجل جاهل تائه في الصحراء؛ لكنه يبذل قصارى جهده من أجل خدمة مصلحة الفرد والصالح العام على أفضل وجه، وهو يعمل أن يطور من نفسه ليصحح قراراته ويزيد من مداركه.»

ويلي ذلك تطور على ثلاث مراحل رئيسية: إن موسى مسلم «مسلم بحق»:

- يرجع السبب في ذلك إلى «التأثير العظيم والمفيد جدًا» الذي فرضه عليه قائده الروحي الشيخ الباي «المربط كونتا» المقيم بأدرار من إيفوغاس.
- ولكن، في غياب الباي، يخضع زعيم كل أهقار إلى التأثير الضار الذي مارسه عليه مرابطو منطقة توات.

وبعدها، أبدى فوكو رغبته في أن يقوم موسى برحلة إلى فرنسا.

«لهذا أرغب في أن يذهب في رحلة إلى فرنسا، على أن تكون رحلة جادة مع أشخاص جيدين وليس مخادعين أو سكير ذي مستوى متدنٍ، فهي رحلة إلى فرنسا وليست إلى الجزائر. يعني أن تكون زيارته إلى الجزائر قصيرة حيث أن التواصل مع المسلمين هناك لن يشكل تجربة له؛ لأن موسى مسلم تقي: حماسه قد يسمح للإصحاب الآراء السيئة بالسيطرة عليه، ويمكن أن يؤدي هذا به إلى ارتكاب الأخطاء، إذا قام فعلا بهذه الرحلة إلى فرنسا والتي أرغب في أن تتحقق بشدة، والتي يحتاجها كثيرًا، فمن المستحسن أن يأخذ الخوجه فقط...» (عن فوري، 1946، 2: 46-48)

في هذه الرسالة، بالإضافة إلى مدح زعيم الطوارق، يحدد فوكو مرة أخرى محتوى هذه الرحلة: «على أن تكون رحلة جادة من أجل تعليمه ليأخذ فكرة جيدة عن الأشياء...». لكن الحجة هنا تبدو حاسمة. إنها مسألة «جعله مثاليا عن طريق تصحيح أحكامه وزيادة علمه». المعنى: قد تهدف الرحلة كما يتصورها فوكو (خاصة؟) إلى مكافحة هذا التأثير الضار للعلماء المسلمين، «أسوأ الرجال»، على زعيم الطوارق. لا شيء يوضح هذا أفضل من التوصية برحلة قصيرة عبر شمال الجزائر من أجل تقليل الاتصالات المحتملة لموسى مع رجال الدين المسلمين إلى أدنى حد.

لذلك لم يتوقف فوكو بدوره عن التدخل حتى تتحقق رحلة زعيم كل أهقار إلى فرنسا. يمكنه أيضاً الاعتماد على الجنرال لابيرين الذي كان الداعم المخلص لرغبة موسى وإرادة فوكو. وفي وثيقة بعنوان «تقرير العقيد لابيرين عن الحلول التي يقترحها على عدد من المسائل التي تناولها في تقرير/النقيب دينو Mr le Capitaine Dinaux عن الرحلة»، طلب لابيرين، بعد أن رسم صورة مبهجة عن موسى وأفعاله، تقديم جائزة للأمينوكال وسام فيلق الشرف، وبرنوس أحمر «ثمين» ومزايا مالية. ولكنه وقبل كل شيء أنهى قوله هكذا:

«لا يزال هناك درس حول موضوع مهم، وهو رحلة موسى إلى الجزائر وفرنسا. فهو يرغب بشدة في ذلك، وقد انفتح بطريقة خاصة جداً على الأب دي فوكو. أعتقد أن هذا سيكون شيئاً جيداً للغاية، وعلينا تشجيعه على القيام بذلك. يمكن القيام بهذه الرحلة دون إزعاج في ربيع (AOM -OA 46) عام 1907.»

تشير وثيقة أخرى من الأرشيف إلى أنه كان على لابيرين لاحقاً تحديد طلبه. خلال رحلته، كان سيرافق موسى ثلاثة آخرين من كل أهقار. وتستمر الإقامة في فرنسا أكثر من ثلاثة أسابيع، تشمل 8 أيام في باريس و15 يوماً في المقاطعات. ورد في رسالة من الحاكم العام للجزائر بتاريخ 15 مارس 1907 أرسلت للجنرال قائد قسم وهران أن هذا الطلب رُفض «لأن التمويل غير ممكن». وانتهت الرسالة على النحو التالي: «سأكون ممتناً جداً لك إذا تفضلت بإبلاغ قائد إقليم الواحات أنه لا يبدو لي أنه من الممكن في الوقت الحالي متابعة هذا المشروع.» (AOM -OA 46)

في نهاية عام 1908، أدرك فوكو (أخيراً؟) أنه لن يكون المنظم أو المرافق لرحلة زعيم كل أهقار. إن كان ما يزال يؤيدها، فسيتولى آخرون الاهتمام بهذه الرحلة الرسمية نظراً لمكانة موسى. وقد كتب في رسالة إلى الأسقف فيرين في 20 من سبتمبر 1908: «أعتقد أنه من المفيد للغاية أن نستقبل من حين لآخر طوارق مختارين بشكل جيد وقادرين على الاستفادة منهم، أن نقوم برحلة تستغرق خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع في فرنسا. وليس موسى، الذي لا يستطيع أن يذهب من دون رؤية السلطات وشخصية رسمية؛ سنجعله يقوم بهذه الرحلة، لكن مع آخرين غيري. وبالنسبة لأولئك الأفراد البسطاء الذين لا يضطرون إلى رؤية أي سلطة، سأصحهم بكل سرور في هذه الرحلات، مرة واحدة في السنة، إذا وجدت بعض الأشخاص الذين أعتقد أنهم مفيدون حقاً (ليس لهم فقط بل للآخرين، من خلال نفوذهم) والذين يرغبون في القيام بهذه الرحلات، وإذا كانت الظروف مناسبة بخلاف ذلك.» (1998: 637)

هذا أحد التصريحات الأولى عن الرحلة التي سيقوم بها في عام 1913 مع /وكسم أف شيكات (انظر بندولفي 2016).

4. رحلة سنة 1910:

في سنة 1910 تم قبول ذهاب موسى إلى فرنسا، ولم يكن مؤكداً أن هذا القبول يرجع لازدهار الموارد المالية فقد كانت هذه هي الحجة التي عارضت طلب لابرين السابق في سنة 1907، يبدو على الأرجح أن السلطات الفرنسية تعتقد أن العلاقات التي أقيمت الآن مع زعيم كل أهقار قد توطدت وأن الوجود الفرنسي في المنطقة راسخ.

في 5 أوت، صعدت بعثة الطوارق على سفينة شارل رو في الجزائر العاصمة. بعد وصولهم إلى مرسيليا، حيث أمضوا ليلة هناك، وصل الطوارق إلى العاصمة الفرنسية مستقلين القطار. إلى جانب موسى، ضمت بعثة الطوارق ثلاثة أشخاص آخرين: اثنان من نبلاء الطوارق، وتي أف المنير، وسوغي أف شيكات، بالإضافة إلى مترجم.

وتي أف المنير⁴ كان من أوائل نبلاء الطوارق الذين انضموا إلى فرق المهاريست

Les Compagnies méharistes وبسرعة كبيرة تم تعيينه رقيب. كان موضع تقدير خاص من قبل الضباط الصحراويين والأب دي فوكو. هذا الأخير أرادته وحده أن يرافق موسى خلال رحلته إلى فرنسا. في رسالة موجهة إلى سيفونني Sigonney في 14 جوان 1910، كتب المرابو: «ليس لدي أخبار أخرى من موسى غير ما تلقيته اليوم منك.»

من الذي تلقيته اليوم منك ومن رسالته، وفقاً لما أتفق عليه مع العقيد عند ما انفصل عن موسى، لم يكن لدى موسى أي رفيق آخر في رحلته إلى فرنسا سوى وتي، الذي أشار إليه موسى نفسه بأنه أفضل رفيق – فهو الخيار الأحسن. جيد، وهو الشخص الوحيد مع موسى القادر حالياً على الاستمتاع بالرحلة وهو رفيق مفيد وجيد لموسى. (عن فوري 1946، 2: 206). خلال الفترة 1915-1917، أصبح وتي أحد المؤيدين الرئيسيين لموسى ووجد نفسه مرافقاً له خلال هذه الفترة (انظر بندولفي 2006: 263).

⁴ وتي أف المنير: كان والده المنير أف أديسا، المعروف أكثر باسم أكشم. من قبيلة إيوفلان، قاطع طرق مشهوراً يُعتقد خطأً أنه أحد قتلة موريس (انظر فوري 1948، 2: 375).

لم يحظ سوفي أف شبكات، من قبيلة كيل غلا، بنفس الإجماع من الجنود الفرنسيين والأب دي فوكو. بعد عام 1910، كان على خلاف مع موسى عدة مرات وفرض عليه الأخير غرامة. (راجع فوري 1946، 2: 158). اعتباراً من عام 1915، سيدخل سوفي في صراع مفتوح مع الزعيم كل أهقار وسيشارك في الثورة الكبرى التي اندلعت آنذاك في الصحراء. في رسالة إلى كوفي Cauvet بتاريخ 11 ماي 1917، لايرين كتب: «إن انابة مع سوفي أف شبكات، صهره [...] هم الذين يقودون الثوار الهقاريين ...» (عن بندولفي 2006: 279).

بشكل ملحوظ، في الرسالة التي وجهها إلى سقوني حول رحلته، لم يذكر موسى سوفي بل امتدح وتي: «لا يمكنني أن أوفي حق وتي بالمديح؛ فهو ممتاز في كل شيء، ذكي، حيوي، متحفظ، نشط، يمتلك مشورة جيدة؛ كنت سعيداً جداً لوجوده معي.» (عن فوري 1946، 2: 219).

وأخيرا يضاف إلى هذا الوفد أنيني المترجم للعربية الشاب. يمكن التعرف عليه بسهولة في الصور الفوتوغرافية لأنه الشخص الوحيد الذي لا يحجب الجزء السفلي من وجهه.



استقبال الجيش لبعثة الطوارق

5. من دهشة إلى دهش ...:

وفقاً لمقال نُشر في مجلة لو بوتي جورنال في 9 أوت 1910، بدأت الدهشة تغمر زعيم الطوارق بمجرد أن أخذته العبَّارة إلى مرسيليا. كانت هذه أول مرة يرى فيها هذا الرجل البحر وهو «لم يرى مساحة كبيرة من المياه سوى البركة التي تمتد بين ضفتي نهر النيجر». كان يحق لوفد الطوارق أيضاً القيام بجولة في السفينة بصحبة مرشد. «موسى أف أمستان كان مندهشاً، لم يكن لديه أي فكرة عن هذه القصور العائمة العظيمة التي تحمل مئات المسافرين، وكان مهتماً بشكل خاص بالآلات والتركيبات الكهربائية المختلفة.» لحظة أخرى من الدهشة كانت: البرقية التلغرافية التي تمكن موسى من إرسالها من السفينة إلى الجنرال بايو Général Bailloud ليشكره على الترحيب به في الجزائر العاصمة... وبعد فترة وجيزة، كان الرد الذي أرسله إليه الجنرال بنفس الوسيلة... ولم تكن هذه سوى البداية فقط.

أثناء إقامتهم على الأراضي الفرنسية، تم القيام بكل شيء لإثارة إعجاب وفد الطوارق. وهو ما يتضح من خلال العديد من المقالات الصحفية التي تحدثت عن تجوال موسى ومرافقيه كل يوم. ففي باريس، كان يحق للطوارق، من بين أمور أخرى، ركوب السيارات، وصعود برج إيفل، وزيارة متحف الجيش، والمشي في بوا دو بولون Bois de Boulogne، وحضور أمسية في الأوبرا ... وفي 14 جويلية، كانوا قادرين على حضور العرض التقليدي في الشانزليزيه Champs-Élysées.

كما سمحت بعض الرحلات الاستكشافية إلى المقاطعات بأن تقوم السلطات بإظهار القوة الصناعية لفرنسا: زيارات للمصانع في كروزو Creuzot في 19 أوت، والمناجم في بروي Bruay في 30 من الشهر نفسه، ورحلة إلى شمال فرنسا، إلى ليل Lille وروبي Roubaix في 1 سبتمبر.

وقد كان من الضروري أيضاً التباهي أمام محاربي الصحراء بالقوة العسكرية للبلاد فتتم دعوة الزوار عدة مرات إلى عروض عسكرية: مناورات في كريتيي Crèteil في 9 أوت وإيسي لي مولينو Issy-Les-Moulineaux في 12 أوت، ولإحداث المزيد من الانطباع، أُستُخدِمَ الطيران. في 17 أوت حضر وفد الطوارق العرض الجوي الأجنحة المنتصرة Les Ailes victorieuses، وفي يوم 27 من نفس الشهر، حضر موسى ورفاقه عروض جوية جديدة في مخيم شالون سور مارن Châlons-sur-Marne.

نرى بأن البرنامج كان حافلاً ففي صباح يوم 12 أوت مثلاً: حضر موسى ورفاقه مناورات سلاح الفرسان في إيسي لي مولينو، ثم بعد وجبة الفطور، تم إرسالهم في نزهة على الأقدام في *بوا دو بولون Bois de Boulogne*، قبل زيارة متحف الجيش *الانفاليدي Les Invalides* ولإنهاء اليوم، تمت دعوتهم إلى أمسية في دار الأوبرا ...

في هذا الاضطراب المستمر، لا شك في أن اليومين اللذين أمضوهم في *باربري سور أوش Barberay-sur Houche* في *بورغون Bourgogne*، مع أخت شارل دي فوكو وصهره، قد ظهرا لموسى كملاذ للسلام. كان لابيرين هو من سأل فوكو في جوان 1910 عما إذا كان الوفد يمكنه زيارة عائلة *دي بليك De Blic*، اعتباراً من 1 جويلية، أبلغ المرابو أسرته. ورسم في رسالته هذه الصورة عن زعيم الطوارق: «موسى هو أعز أصدقائي من بين الطوارق، أنا أحبه وأحترمه، إنه يتمتع بذكاء فائق وشجاعة وقوة شخصية لا مثيل لهما، وهو فاضل حقاً على الرغم من كونه مسلماً، ومسلم صالح علاوة على ذلك، فهو التقي الوحيد من بين جميع الطوارق.»

أقام الوفد بقيادة النقيب *نيجيز* في *باربري سور أوش* في 3 و4 سبتمبر 1910، قدمت لنا ملاحظات من *شارل دي بليك Charles De Blic*، ابن شقيق فوكو، ببعض المعلومات حول هذه الإقامة، شهادة ثمينة أبلغنا بها أنطوان *شتلار Antoine Châtelard*، أعلمنا أن بعثة الطوارق تعلموا كيفية عمل *الهويس*⁵ وزاروا مطحنة دقيق في *جيسي سور أوش Gissey-sur-Houche*، على بعد كيلومترين فقط. لقد كانوا ممتنين، بحسب هذه الشهادة، موسيقى وأغاني بنات أخت شارل دي فوكو. كما تم إبلاغنا ببعض انعكاسات الرحلة على البعثة. واكتشف موسى القبو المقرب لمنزل *باربري*: «سيكون سجنًا جيدًا.» أو هذا الرد موجه إلى *نيجيز* الذي طلب من الضيوف عدم التدخين قبل الحصول على تصريح من مضيفهم: «لكنك، عندما تأتي إلى خيامنا، فأنت تفعل ذلك جيدًا، وأنت تدخن دون أن تطلب ذلك.»

تعليق شارل دي بليك: «وبقي النقيب صامتا.»

⁵الهويس: هو منشأة ملاحية فائدتها نقل القطع الملاحية (المراكب والسفن وخلافه) من منسوب مياه لمنسوب مياه آخر في المجرى المائي سواء كان ترعه أو نهر أو قناة مائية، والاختلاف في المنسوب هذا خلال المجرى المائي يكون سببه وجود اختناق في المجرى المائي بسبب وجود منشآت في الممر المائي مثل الجسور والهدارات والقناطر، لذلك تكون الأهوسة بجوار هذه المنشآت لتجنب انقلاب المركب بسبب اختلاف مناسيب المياه.

بمجرد مغادرة موسى باربري، كتبت ماري دي بليك Marie De Blic إلى شقيقها، الذي رد في 15 أكتوبر: «شكرا لك على رسالتك المؤرخة في 4 أوت ولكل ما فعلته لموسى وبعثته، شكرا لك على صورة موسى». (1996: 113). بالنسبة لزعيم الطوارق، في طريق عودته من الجزائر العاصمة في 20 سبتمبر، كتب إلى فوكو: «إلى المحترم المتميز صديقنا العزيز بين الجميع، يسلم عليكم الكاهن عبد عيسى السلطان موسى بن مستان ... كيف حالك؟ وإذا كنت تريد معرفة حالنا مثلما طلبنا معرفة حالك، فنحن بخير، والحمد لله، وليس لدينا سوى الأخبار السارة التي نقدمها لك، ها قد أتينا من باريس، بعد رحلة سعيدة، عاملتنا السلطات الباريسية بسعادة، ورأيت أختك (ماري دي بليك) ومكثت عندهم يومين، رأيت كذلك صهرك، زرت حدائقهم ومنازلهم، وأنت في تامنغست مثل الفقير! عند وصولي، سأحكي لك كل الأخبار بالتفصيل.»

وصلت هذه الرسالة إلى فوكو في 1 نوفمبر 1910، وأبلغ أخته على الفور هكذا: «حبيبتي، لقد وصلتني رسالتك المؤرخة في 23 سبتمبر. [...] تلقيت في نفس الوقت رسالة من موسى عنوانها طريف: لقد أرسلتها إليك؛ كتبها لي من الجزائر العاصمة، وأعطاني أخباراً عنك وعن Raymond ريمون، وأخبرني كم هو ممتن لاستقبالكم؛ لم يصل بعد؛ سيكون هنا في غضون أيام قليلة.» (عن بزان 1921: 392 Bazin) عنوان طريف؟ لفهم ملاحظة فوكو حول عنوان موسى في الجزائر بشكل أفضل، يجب أن تعلم أن رسالة زعيم الطوارق مكتوبة على قرطاسية من فندق الواحة، ستصبح هذه المنشأة، بعد مرور موسى، مكان الإقامة المفضل للطوارق في الجزائر العاصمة.

ذهب الطوارق إلى إيسي مولينو، جنوب غرب باريس، لمشاهدة الطائرات وهي تحلق. كان برفقتهم العقيد لايرين، على اليسار في الصورة.

لاحظ المظلة التي يحملها المترجم العربي أنيني. يجب أن نتذكر أن رؤية الطائرات تحلق كان أمراً استثنائياً: فقد أقلعت أول طائرة في العالم قبل 7 سنوات فقط... لكن بالنسبة لهؤلاء الزوار، لم يكن الأمر أكثر من مجرد فضول.



خلال هذه الرحلات المختلفة، غالبًا ما يصنع وفد الطوارق الحدث، وكان هذا هو الحال بمجرد وصولهم إلى مرسيليا، كتب المراسل المحلي لصحيفة لو تون Le Temps: «كان موسى أف أمستان موضع فضول كبير عندما وصل.» بعد ذلك، لم يتضاءل هذا الاهتمام. وهكذا، في مقال نُشر في صحيفة لو فيغارو Le Figaro وهو تقرير يتحدث عن الاجتماع الجوي في 18 أوت في إيسي ليه مولينو، كُتب: «وفي سيارة، على حافة الطريق، موسى أف أمستان وثلاثة من الطوارق من بعثته؛ بوجوه محجبة، وعيون براق، ينتظرون وسط فضول الجمهور وصول رجال الجو.



في ليانكور، شمال باريس في ألواز L'Oise،
زيارة بعثة الطوارق لمزرعة ومصنع طحن.

في العديد من المقالات التي خصصتها الصحافة لهذه الرحلة، نجد أحياناً تفاصيل كثيرة وأخرى أقل وضوحاً، في أحد المقالات بعنوان الصحراء الأخيرة حيث نضحك، والذي نُشر في 10 أوت في لا كروا / La Croix، كُتب: «ما يبدو أكثر تسلية لموسى أف أمستان، منذ أن وطأت قدميه أوروبا، هي مع القبعة العالية الشكل le chapeau haut de forme، اكتسب ابن الصحراء الشرس على ما يبدو تفكير ليتنكر عند عودته ويسلي الطوارق، هيا! «إن ابتهاج الصحراء القديم لم يندثر!» الأكثر مأساوية، الحدث المذكور في مجلة لو بوتى جورنال يوم 31 أوت، بعد زيارة مناجم بوري Buray: «في الوقت الذي غادر فيه الطوارق المحطة، عاد السيد مايار M. Maillard، مدير محطة بيتون Béthune، الذي استقبلهم، إلى مكتبه، وبعد بضع ثوان مات فجأة، وقد أكد وفاته طبيب شاهد على وفاته كان حاضراً عندما سقط على مكتبه.

وبالتأكيد بتحريض من لابيرين و نيجيز، استغلت عدة صحف هذه الرحلة لإبلاغ قراءها بخصائص مجتمع كل أهقار والسياسة الاستعمارية للسلطات الفرنسية، وهكذا جاءت مقابلتين مع لابيرين، نُشرت إحداهما في الأورور L'Aurore في 8 أوت والأخرى في لو بوتى باريزيان Le Petit Parisien في 9 أوت 1910 (سننشر النص الكامل في نهاية المقال)، وفي نفس الصحيفة، عاد نيجيز في اليوم التالي الكلام على أكثر ما يفاجئ عند بعثة الطوارق، وكذا خصائص الحياة البدوية « وشخصية الطوارق »، ثم يتسائل الصحفي ما إذا كان الطوارق « غير حساسين للفن »، ثم يرد بإشارة صريحة إلى عمل الأب دي فوكو، « مطلقاً، أدهم ثري جداً وأصلي جداً، جمع الأب دي فوكو، الذي كان أول من اخترق عادات ولغة الطوارق، أكثر من 2000 قصيدة غنائية، على الحروب، والطبيعة، وساخرة ذات طابع مثير للاهتمام، والتي سيكون لدينا قريباً ترجمات ممتازة لها، وفي نفس الوقت كتاب عن قواعد النحو وقاموسين. « هذا البيان مثير للدهشة على أقل تقدير عندما نعرف إلى أي مدى أراد فوكو أن تظل أعماله مجهولة أو، في أحسن الأحوال، أن تنشر تحت اسم مُتيلينسكي Motylinski الذي توفي عام 1907، لقد كررها بقوة في رسالة وجهها إلى الأب فيرين في 15 جانفي 1908: « أبي العزيز، لن أسمح أبداً، أبداً، أبداً بنشر أي شيء باسمي طوال حياتي، وأمنع بشدة أن يتم ذلك بعد موتي [...] راهب، الموت للعالم، أريد أن تكون كاملة ... » (1998: 584)

استمر فوكو حتى مماته في التعبير عن نفس الرغبة في عدم الكشف عن هويته كما يتضح، من بين عديد الرسائل، من خلال رسالته المؤرخة 11 ماي 1914 إلى ريني باسي René Basset . (2001-2002 : 254)

6. ما هو التأثير (التأثيرات) على موسى؟

عندما كتب الحاكم العام للجزائر في 21 سبتمبر 1910 إلى العقيد نيجيز يشكره على الدور الذي لعبه في هذه الرحلة، أوضح له نيجيز أن موسى ورفاقه عادوا «مبتهجين برحلتهم، وقد زاد مستوى رضاهم وحماسهم». لكن، هنا مرة أخرى، يجب أن نشير إلى شهادة الأب دي فوكو.

بمجرد وصوله إلى تامنغست في 14 ديسمبر 1910، حتى قبل أن يلتقي بعائلته، حرص موسى على زيارة المرابو، في رسالة وجهها في نفس اليوم إلى العقيد سقوني، تحدث فيها فوكو عن هذه الزيارة، ويوضح أن زعيم الطوارق «مسرور بالترحيب الذي لقيه من الجميع. وأن الوالي أعطاه ساعة ذهبية منقوشة عليها إهداء».

ثم، في رده على رسالة من دينو، أدرج فيها جميع الصحراويين الذين التقى بهم موسى أثناء رحلته: دينو، و قوتيي Gautier، و فيلات Villate، و دوبوي Dubois، وكوفي... ولكن قبل كل شيء، في نفس اليوم، تحول إلى سكرتير موسى حتى يتمكن من الرد على المراسلات المرسلة إليه من قبل هذا سقوني نفسه، يتعلق الأمر بالطبع بالرحلة التي قام بها موسى، لا شيء يبدو أنه يعبر عن التأثير الناتج على موسى أفضل من الجملة التي تختتم هذا المقطع: «ملازمي، أحييكم كثيرا، وصلت اليوم من إن صالح إلى تامنغست، وقبل ذهابي إلى منزلي توقفت عند المرابو الذي ترجم رسالتكم لي، شكراً جزيلاً لك [...] لقد عدت من رحلتي إلى فرنسا بالسلامة، لقد حظيت باستقبال جيد، أشكر الله على اللطف الذي أبداه الجميع معي، لقد رأيت أشياء أكثر مما أستطيع أحكيه، وبغض النظر عن مقدار ما أحكيه، لن يفهمني الناس، لأنه لا يمكنك تكوين فكرة عن هذه الأشياء دون رؤيتها.» (في فوري 1946، 2: 218)

بالنسبة للسلطات الاستعمارية، كانت مصلحة هذه الرحلة واضحة تمامًا، كان الأمر يتعلق برؤية زعيم الطوارق للقوة (الصناعية والعسكرية على وجه الخصوص) لفرنسا لإقناع الوفد بأن أي فكرة (محتملة) عن التمرد على أنها خيالية، وبالتالي يصبح كل أهقار حلفاء أكيد.

إذا ما صدقنا رسالة الحاكم العام المذكورة أسفله فيبدو أن الهدف تحقق: «لديّ كل الأسباب للاعتقاد [...] أنهم سيظلون لفترة طويلة مشبعين بقوتنا ومزايا حضارتنا ومع فضولهم، سيساهمون أكثر فأكثر في التهذئة والتنمية الاقتصادية في بلد الطوارق.» يؤكد الدكتور هريسون Hérison الذي كان في الأهقار في ذلك الوقت هذه الاستراتيجية ويعتقد أن هذا الهدف قد تحقق بشكل جيد: «كانت فكرة رحلة موسى أف أمستان إلى باريس مهارة سياسية، هذا سوف يسهل مهمتنا بشكل كبير، يعتقد الطوارق أنهم عرق أكثر تقديرًا من عرق الفرنسيين، شعروا ببعض الإذلال، الأمل في استعادة الاستقلال تلاشى إلى الأبد من أذهانهم.» (1937 : 308).

كان هذا الهدف أيضًا هدف الضباط الذين رافقوا وفد الطوارق، ومع ذلك، أراد لايرين و نيجير أيضًا الاستفادة من هذه الرحلة، التي غطتها الصحافة على نطاق واسع، لجعل مجتمع الطوارق وعملهم في الصحراء معروفًا بشكل أفضل لمواطنهم، في الواقع، كانت السياسة التي كانوا يروجون لها بعيدة كل البعد عن الإجماع⁶ بين السياسيين والجنود المسؤولين عن الصحراء، لذلك كانت هناك طريقة مميزة لشرح التفاصيل الداخلية والخارجية بشكل أفضل، وهذا واضح في المقابلات التي أجروها مع العديد من الصحف، في هذا الصدد، فإن مقال الصحراويون والصحراء المنشور في لوتون في 13 أوت هو نموذج من نوعه، وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنه تم إعادة إنتاجه بالكامل في أوت 1910، بنفس العنوان، في العدد 8 من هذا الجهاز التابع للحزب الاستعماري، كشف اللجنة الإفريقية الفرنسية، النص عبارة عن تأييد مقنع جيدًا لعمل لايرين: إنشاء شركات صحراوية، والتطوع، وما يسمى بسياسة الترويض ... وينتهي حتى بملاحظة نقدية لضباط السودان الذين كانت علاقاتهم مع لايرين متضاربة في بعض الأحيان.

شهادة أخرى مثيرة للاهتمام هي شهادة الدكتور هريسون، الطبيب العسكري المتمركز في الأهقار من عام 1909 إلى عام 1911، في عمله بعنوان مع الأب دي فوكو والجنرال لايرين الذي نُشر عام 1937، والذي يستند بشكل أساسي على الملاحظات التي سجلها أثناء إقامته في الصحراء، خصص عدة صفحات لرحلة بعثة الطوارق.

⁶ البعد عن الإجماع: لفهم الخلافات التي قد توجد بين لايرين وسلطات الجزائر وباريس بشكل أفضل، يمكنك قراءة المراسلات الصحراوية. رسائل غير منشورة من الجنرال لايرين إلى القائد كوفي، نشرتها Khartala كارتالا عام 2016.



- بعثة الطوارق تحضر مناورات عسكرية على ضفاف نهر المارن.
في أقصى اليمين. العقيد لايرين وإلى جانبه موسى أف أمستان

بشكل أساسي الملاحظات التي دونها خلال إقامته في الصحراء خصص عدد من الصفحات لرحلة بعثة الطوارق، كان عملاً مثيراً للاهتمام لأنها، بالإضافة إلى حقيقة أنه كان شاهداً مباشراً على عودة موسى، طريقة سرده لم تكن تقليدية على غرار باقي المعلقين. وهكذا لاحظ أن أعضاء وفد الطوارق أعجبوا بالحيوانات أكثر من إعجابهم بالمصانع والطائرات: «أكثر ما أعجبوا به الأغنام والثيران، بسبب أنها لم تكن مثلما اعتادوا رؤيته، كانت أكبر بكثير.» (1937 : 307). وكذلك يخبرنا عن دهشة موسى ودهشة رفاقه على السلام الذي يسود بين الحشود التي تجوب شوارع باريس، لكن على الرغم من كل الأشياء غير العادية التي اكتشفوها، كان الطوارق حريصين على العودة إلى الوطن بسرعة. إذا كانت رحلتهم اكتشافاً يتجاوز ما كان يمكن تخيله، فلن يرغب أي منهم في تكرار مثل هذه التجربة: «في باريس لم يحسد موسى ورفاقه الفرنسيين ولم يرغبوا في البقاء طويلاً في بلادنا، [...] لم يرغب أي منهم في العودة إلى باريس مرة ثانية، لكن فرنسا كانت بالنسبة لهم "عجيباً وذهولاً".» (المرجع نفسه: 306-308).

7. في تامنغست، النتائج أكثر تفاوتاً:

الوضع مختلف بالنسبة لشارل دي فوكو، رغم أنه كان أول من رغب في هذه الرحلة، إلا أنه لم يتخيلها بهذه الطريقة، وفقاً للتعبير الذي غالباً ما يظهر في كتاباته، فقد أراد «رحلة تثقيفية.» في نظره، لم تسمح حفلات الاستقبال الرسمية والأمسيات في دار الأوبرا لموسى بإكمال تعليمه من أجل نفسه ومن أجل شعبه.

بالطبع لا يمكن أن يكون شديد النقد لأنه رغب في هذه الرحلة، ولابيرين ونيجيز، مرشدا بعثة الطوارق، صديقه، لكننا نشعر أن هذه ليست الرحلة التي يريد لها لزيم كل أهقار.

في عام 1910، عارضت بعض العناصر خطة فوكو أولاً، أصبح موسى الآن شخصية معترف بها وقطعة رئيسية في السياسة التي كانت متبعة بعد ذلك في الصحراء، من المستحيل في الواقع أن تأخذ رحلته منعطفاً خاصاً. إنها زيارة رسمية بكل ما تنطوي عليه، الآن، هذا يناسب رغبة موسى تماماً، لقد كان مغرماً بالتكريم وغالباً ما يلومه فوكو على ذلك، في عام 1910، كان المرابو -بينما ما يزال يحترمه- ينتقده في بعض الأحيان.

لكن قبل كل شيء، بالنسبة لفوكو، تأثر موسى كثيرًا برجال الدين العرب وشارك في الواقع في تعريب وأسلمة الأهقار، لذلك ليس من قبيل المصادفة أن فوكو تبنى اقتراح لايرين للترحيب بوفد الطوارق في باربري، في عائلة أخته ماري، تُظهر الرسائل الموجهة إلى أخته بوضوح ما كان يتوقعه من مثل هذه الإقامة، بينما يأسف لأن هذه قد تكون اللحظة الوحيدة (والقصيرة) لـ «رحلة تعليمية» حقيقية.

أعلنت أولى هذه الرسائل، المؤرخة في 16 يوليو 1910، عن احتمال وصول موسى.

«إذا حضر لك لايرين أو نيجير صديقي موسى، وهو محارب عظيم وفي نفس الوقت رجل طيب جدًا، وأنا أحترمه وأحبه، وعلى الرغم من كونه مسلمًا، يحب الله حقًا، اطلب من ريمون Raymond أن يبقيه تحت سقفك قدر الإمكان، أره المنزل من القبو إلى العلية، حتى يكون لديه فكرة عن حياتك وعن طبيعة الأسرة في فرنسا. طلبت من لايرين أن يطلب منك استضافته هو وموسى لمدة يوم أو يومين، إذا كان ذلك ممكنًا بالنسبة له ارجو أن تتحملي أنت وريمون على متاعب وجود موسى في منزلكم لمدة 24 أو 48 ساعة إذا كان كذلك. (هذا إذا استطاع)؛ هذا عمل من أجل أن يظهر كيف نعيش، وسيكون هذا ثمرا، لأن الرؤية والمثال في يوم يقنعان بشكل أفضل من الكلمة لسنوات عديدة...»

في الرسالة الثانية، بتاريخ 16 أكتوبر 1910، شكر فيها أقاربه على الترحيب الذي قدموه لوفد الطوارق.

«كم أشكرك على استقبال موسى ورفاقه: إنه عمل تبشيري قمت به، أنتم العائلة المسيحية الوحيدة التي رأوها: لقد رأوا العديد من الفنادق والسكك الحديدية والجنود، إلخ...، لكن أنتم العائلة الوحيدة التي قابلوها، موسى ذكي بما يكفي لفهم كل ما يراه وسيجني بالتأكيد مكافآت كبيرة من وقته في باربري، شكرا لك من كل قلبي.»

فوكو راضٍ نوعا ما عن الشكل الذي سارت عليه رحلة موسى، كان زعيم الطوارق في عدة مناسبات قادرًا على إدراك القوة الفرنسية، لكن الجانب التعليمي من رحلته سواء بالنسبة له أو لمرافقيه لم يؤخذ في الاعتبار، في رسالة بتاريخ 1 نوفمبر 1910 إلى الأب فويارد Voillard، كان يأمل أن تظهر ثلاث نقاط لموسى على أنها ضرورية لتقدم شعبه: التربية والتعليم وفوق كل شيء التوطين الضروري لهذا الشعب الرحال.

«موسى أف أمستان سيعود قريباً من رحلته إلى فرنسا، إنه ذكي وتقي وصاحب نوايا حسنة، رغم أنه ليس مثاليًا، نأمل أن يكون قد استمتع برحلته، عند عودته، سأحاول أن أجعله يفهم أن هناك ثلاثة أشياء ضرورية إذا كان يريد أن يعمل من أجل الخلاص الأبدي لشعبه، وهذا واجبه: 1° توفير التعليم للأطفال والشباب، الذي يظل سائبا مثل الحيوانات. 2° توفير تعليم لنفسه إلى حد ما. 3° العمل على جعل شعبه حضري، مع تركهم قومًا رعيًا.» (1998 : 851)

بعد شهر، في 9 ديسمبر، تحدث عن هذه الحجة في رسالة إلى مونسينور ليفيناك Monseigneur Livinhac، بينما كان يشكك في قدرة موسى واستعداده للعمل في هذا الاتجاه.

«قام موسى أف أمستان، زعيم الطوارق، برحلة تعليمية إلى فرنسا تحت إشراف العقيد لابين ورئيس المكتب العربي في إن صالح النقيب نيجير، ومن المتوقع أن يعود هذه الأيام. أتمنى أنه عاد من رحلته مع رغبة في رؤية مواطنيه ينهضون ويعلمون أطفالهم، بدلاً من تركهم سائبين وجاهلين مثل الغزلان في جبالهم. ترتبط مسألة التربية والتعليم ارتباطاً وثيقاً بمسألة البداوة؛ موسى شخص ذكي، فهل سيستطيع مقاومة بداوة عرقه، وإصلاح شعبه شيئاً فشيئاً؟» (المرجع نفسه: 776-777)

8. وبعد؟

وكثيراً ما يتم التذرع برحلة موسى هذه لتبرير موقف الولاء الذي سيتبناه موسى، على الرغم من بعض الترددات، في 1915-1917 أثناء الثورات التي اندلعت في الصحراء آنذاك. سوف تشرح العديد من الكتابات، بعد ذلك، السياسة التي اتبعتها زعيم الطوارق من خلال تأثير هذه الرحلة.

وهكذا، كتب لوي لو أورو Louis Lehuraux في نص نُشر عام 1946: «تعرف موسى أف أمستان على فرنسا، خلال رحلة في عام 1910، أطلعته لابين ونيجير على ترساناتنا وصناعاتنا وأفضل مزارعنا وقد حضر استعراضات عسكرية كبيرة، ترك له مشهد القوة الفرنسية انطباعاً قوياً وظلت هذه الذكرى راسخة لديه، كما أنه لم يستطع حمل نفسه على الاعتقاد بأن بلادنا يمكن أن تهزم كما كان يشاع لدى خصومنا، واحتفظ في أعماقه بالثقة رغم ارتباكها.» (1946 : 161)

الأهم من ذلك هي كلمات فوكو في الوقت الذي امتدت فيه الثورة إلى الصحراء، في 16 أبريل 1915، في رسالة موجهة إلى /النقيب ديكلو Capitaine Duclos، كتب فيها: «... أعتقد أن موسى مخلص لفرنسا لأنه يفهم، خاصة منذ رحلته إلى فرنسا، أن ذلك ضروري...» (عن قوري، 1946، 1: 165). بعد عام، في 10 أبريل 1916، كرر هذه الحجة في رسالة أرسلها إلى الرائد ميّني Meynier : «أعتقد أنه من الخطأ أن يكون فيهرون قد حصل على مساعدة موسى.

موسى أذكي من ألا يعرف أن الكلمة الأخيرة ستكون لنا خاصة بعدما رأى فرنسا...» (عن فوكو، 1954: 126) تم العثور على نفس التأكيدات كلمة كلمة في رسالة أرسلت في اليوم التالي إلى بول ديكلو (عن قوري، 1946، 1: 234)

يبدو أن موسى يشهد على ذلك بنفسه في رسالة أرسلت في بداية عام 1917 إلى جميع قبائل الأهقار، يطلب منهم أن يظلوا أوفياء لفرنسا. كتب: «أريد أن أخبركم أنني ذهبت ذاك العام إلى فرنسا وزرت مدينة باريس، لقد رأيت قوة وعظمة فرنسا. لا تفقدوا أعصابكم أيها الناس، ولا تستمعوا إلى أولئك الذين يزعمون الجهاد بأكاذيب وبدون هدف. أحذركم من أن كل أولئك الذين سيستمعون إلى الأشخاص الذين يقولون إنهم يخوضون حربًا مقدسة والذين لا يحفظون كلمتهم سيعاقبون وسيندمون على سلوكهم، حافظوا على كلمتكم وكونوا صادقين مع فرنسا.» (AOM 41 OA.)

موسى أف أمستان أمينوكال الأهقار

زعيم الطوارق العظيم، على لسان الكولونيل لايرين، تفضل لنا، أمس، بسرد انطباعاته الأولى عن الرحلة.

رائع، ببرنوسه الأبيض الطويل، وجهته المغطاة بالشاش المزين والملفوف حول رأسه، الجزء السفلي من وجهه مخفي تحت حجاب الطوارق الأسود، أطل موسى أف أمستان، ابن أمستان، ابن شقيق/مدور، الأمينوكال، كبير كل أهقار، صباح أمس من على شرفة الدائرة العسكرية بباريس، إلى جانبه وقف وتي أف متير وسوغي أف شيكات، وهما يرتديان مثله، وفي صمت كبير، قدم نفسه للناس في مشهد رائع...

في الأسفل على أرصفة شارع الأوبرا، بدأ الناس يتجمعون تدريجياً في فضول، مفتونين بهؤلاء العمالقة الثلاثة الذين يرتدون ملابس بيضاء، بلا حراك مثل التماثيل، ويدخنون سجائر طويلة، وينظرون إلى الشعب الباريسي يحتشد عند أقدامهم في غوغاء صاخبة.

ذهبت إلى هذا المحارب القاسي الصارم، قائد الثوار الذي وضع نفوذه وسيفه العريض في خدمتنا، لأسأله عن رأيه في المدينة التي لم يرها إلا ليلة وصوله؟ مترجمان:

تكرم العقيد لايرين، الجندي الفخور الذي ندين له باستعادة الأمن في واحات التوات والتيديكلت وواحات الشعانبة، بالتحدث نيابة عن موسى أف أمستان أمينوكال الأهقار لا يعرف ولا كلمة من الفرنسية أو العربية. يتحدث بلغة الطوارق. يترجم وتي أف متير إجابات الزعيم من لغة الطوارق إلى العربية، والتي ينقلها العقيد لايرين بدوره من العربية إلى الفرنسية. موسى أف أمستان، يقول العقيد لايرين، يشعر -سيكون من المذهل لو كان الأمر خلاف ذلك - بدهشة تتجدد من لحظة إلى أخرى ويصعب علينا تصورها، لأنه بسبب قلة الكلمات والتعبيرات لترجمة أفكاره لا يمكن أن يعهد إلينا بهذا الأمر برمته... - «إنه كبير!»

هذا ما يعبر به من على شفتيه في كل لحظة، مع تعابير مندهشة، والتي لا يمكن ترجمتها إلى الفرنسية إلا بمصطلح: «أنا مندهش!»

مع ذلك لقد تضائل فضوله على بعض الأشياء مثل: السيارات والسكك الحديدية، أصبحت تبدو له أشياء طبيعية؛ لقد أوضحنا له آلية عملها، وأدوارها وفائدتها.

لا بد لي أن أخبركم بأنه يفضل السيارة على أي وسيلة نقل أخرى؛ هذه البدائية تخضع للجاذبية الغامضة للسرعة.

لقد أدهشته الباخرة التي نقلتنا من الجزائر العاصمة إلى مرسيليا أكثر، ولكن أكثر شيء ما أثر فيه هو دوار البحر الذي أثر عليه بشكل كبير وكذلك رفاقه، كان يعتقد أن ساعته الأخيرة قد جاءت واستسلم، بقدرية إسلامية بحتة، لينتهي بهذه الطريقة، عندما أصبح البحر أقل سوءًا، تتوقف آثار الوجود عن الظهور. منذ ذلك الحين، غالبًا ما يطرح سؤال في محادثته: -لماذا مرضنا؟ لماذا لم تعانوا أيها البيض مثلنا؟ أجوبتنا تجعله يتأمل.

لا يوجد برنامج رسمي:

-ماذا سنريه في فرنسا؟

-لا نعرف بعد. وزير الحرب غائب. لن يكون الحاكم العام للجزائر في باريس حتى 10 أو 11 أوت. لذلك، لم نتمكن من اتخاذ قرار بشأن أي برنامج حتى الآن ... سنقوم، في غضون ذلك، سنأخذهم في جولة بالسيارة في جميع أنحاء باريس لاستكشاف أزقتنا، ومتنزهاتنا، وشوارعنا الرئيسية. سنريهم آثارنا ونأمل أن تثير اهتمامهم بشكل كبير.

-هل موسى أف أمستان ذكي؟

-ذكي جدًا، وعميق التفكير، وحذر جدًا، وحكيم جدًا. لقد فهم أن مصلحته ومصلحة شعبه تأمره بأن يصبح ليس فقط صديق لنا ولكن أيضًا مساعدنا ... أكد لكم بأن هذه المهمة التي قام بها لم تكن سهلة.

لكن كان في قلبه قناعة لا تتزعزع. الشيخ الذي رباه، الباي كونتا من ايفوغاس كان بالفعل شديد الاستعداد تجاهنا، وساعده عمه أمدور بكل نفوذه ولكن النضال كان شاقا بالنسبة لموسى أف أمستان، بسبب اعترافه بتفضيلاته وإعلانه بقراراته سرعان ما أثار الشك به من طرف جميع أفراد أسرته وأثار الغيرة والكراهية لدى ابن عمه، آتيسي أف أملال من قبيلة كل غلا، الذي كان آنذاك أمينوكال الأهقار.

آتيسي أف أملال هذا كان قد خلف أهيتاغل الرهيب الذي تسبب في مذبحه بعثة فلاترز Flatters والذي كنا دائما نرفض التعامل معه. لقد كان رجل حزب النهب، والمدافع عن التقاليد، وقاطع الطريق، ورجلاً شجاعاً على ذلك، متعصب مهووس، وذو المزاج الأكثر تعطشاً للدماء.

لقد حاربنا بشراسة، ولكن في 7 مايو 1902، هزمه الملازم الأول كوتني le Lieutenant Cottenest، الذي يقود الآن قوم في الدار البيضاء Casablanca، وهزمه هزيمة لا تُنسى. تم القبض على آتيسي أف أملال مهزوماً وعزله من قبل موسى أف أمستان، الذي وعد ثوار الأهقار بالمغفرة، والأمان ... تم تعيينه أمينوكال وأثبت لنا صلابته آرائه من خلال دعمنا، كلما استطاع، المساعدة في بعض الأحيان في ظروف صعبة... هذا هو الرجل الذي يزورنا اليوم. نحن مدينون له بالكثير، لأننا يجب ألا نخفي عن أنفسنا أنه لولا مساعدته المخلصة والنزيهة، لكان تهدئة الصحراء وجنوب وهران والتوات سيكلفنا الوقت والدم والذهب. بفضلها، انتهت أعمال قطع الطرق في الصحراء ونحن مدينون له ببعض الامتنان، لأنني أكرر لك، لولا تدخله النشط وذكائه، لكان الكثير منا كان سيبقى على رمال الصحراء. لذلك يمكننا أن نظهر له بعض التعاطف: فهو يستحق ذلك بدون شك.

-إذن الطوارق أصبحوا أكثر تحضراً أيها العقيد؟

-إنهم يميلون قبل كل شيء إلى الدخول في خدمتنا، ليصبحوا حلفاء ومساعدين لنا، ومع ذلك يحتفظون بحريتهم. إنهم كائنات قاسية، تميل قليلاً إلى الوداعة، ولديهم مزاج قتالي، وهو ما لم يوجه لإثارة استيائنا ولهم قيمة عسكرية حقيقية. لكن هؤلاء البدو ليسوا أغبياء. لقد فهموا أن لهم مصلحة بالمجيء إلينا بإخلاص، والذين لم يرغبوا بأي شكل من الأشكال في فرض قانون جديد عليهم، والذين لم يكن لديهم أدنى رغبة في تحويلهم إلى العبودية.

لم يكن هناك مسار أكثر حكمة من الخضوع والتعاون المخلص من الجانبين للعمل على إعادة السلام والحضارة الذي تقوم به الجمهورية. وهم يعرفون أيضاً أننا لا نملك أي كراهية ضدهم، وقد أصبحوا يعرفون قيمة جنودنا وقوة أسلحتنا. هناك العديد من الأسباب الممتازة لعدم رفض التحالف الذي نقدمه لهم ... خاصة وأنهم كسبوا منه فقط.

عادات التوارق:

-لقد وصفنا الطوارق بالكثير من الصفات، أيها العقيد: لصوص، نهابون، وحوش، بدون أي ولاء، متعصبون...

-لقد قيلت أشياء كثيرة، منها الخاطئ ومنها الصحيح. الطوارق بدائيون وشرقيون ومسلمون. ثلاثة أسباب مقنعة لعدم فهمنا للشرف والشجاعة والولاء بالطريقة التي يفهمونها. يقول الزوج "تجارة الأغنام لا تجارة الماعز" ... وهذا القول إلى حد كبير يلخص أفكاره.

هؤلاء الخصوم الأقوياء هم من عرق مختلف عن عرقنا، من عقلية لا علاقة لها بالعقلية الأوروبية، لذلك يجب أن نعاملهم كما هم ولا نحكم على أفعالهم وفقًا لرؤيتنا.

على أي حال سيكونون مساعدين بامتياز، فهم يتمتعون بالرزانة، والشجاعة وبقدرة فائقة على التحمل وكذلك عنيدون. يتزوجون امرأة واحدة فقط، ولديهم احترام كبير للمرأة، احترام كبير لدرجة أنهم يتركون زوجاتهم وبناتهم غير محجبات يخرجن ويتمتعن بالحرية القصوى. فليس غريباً رؤية فتاة من الطوارق تزور إحدى صديقاتها، على بعد مائة كيلومتر. بهذه الحرية التي تُركت للمرأة،

يثبت الطوارق أن لا سمات مشتركة لهم مع العرب.

نحن أيضاً غير متأكدين بشأن أصلهم: هل هم Berbères أم ساميون Sémites أم ينتمون إلى عرق منقرض؟ تختلف الآراء حول هذه النقطة ... ولا أريد أن أختار بينها. أنا الذي عشت معهم لما يقرب من سبع سنوات ولدي الرغبة في العيش هناك لفترة طويلة حتى الآن، وكذلك أنا من رأى موسى أف أمستان كيف يعمل، أؤكد لكم أننا جلبنا رجالاً سيكون تعاوننا معهم لا يقدر بثمن، لقد أعطيناهم الثقة.

يتبادلون معنا أطراف الحديث بكل سرور ويفتتحون علينا أكثر كل يوم. إنها سلالة غنية وصحية وقوية، يمكننا أن نتوقع منهم الكثير. الرجال الذين سيعملون بموجب أوامرنا جميعهم شباب وأحرار، لأن الناس يتزوجون في وقت متأخر في بلدان الطوارق: الرجل في سن الأربعين أو الخامسة والأربعين، والمرأة في الخامسة والعشرين أو الثلاثين. سنقوم بعمل جيد هناك، هذا أمر مفروغ منه.

-شكراً لك أيها العقيد.

- تحت تصرفك يا سيدي!



تم التقاط هذه الصورة أثناء زيارة بعثة الطوارق إلى *هاراس دي بان* Haras du Pin يمكننا أن نرى بوضوح، على اليسار، المترجم العربي /ثاني، الوحيد من دون حجاب في أسفل الوجه.

قائمة المصادر والمراجع

1. BAZIN, René (1921). Charles de Foucauld. Explorateur du Maroc, ermite au Sahara, Paris, Plon.
2. FOUCAULD, Charles de (1954). Lettres inédites au Général Laperrine. Paris, La Colombe.
3. FOUCAULD, Charles de (1986). Carnets de Tamanrasset (1905-1916), Paris, Nouvelle Cité.
4. FOUCAULD, Charles de (1993). Carnet de Beni Abbès (1901-1905), Paris, Nouvelle Cité.
5. FOUCAULD, Charles de (1998). Correspondances sahariennes, Paris, Cerf.
6. FOUCAULD, Charles de (2001-2002). « Lettres à Monsieur René Basset, doyen à la faculté des lettres d'Alger », Études et documents berbères, 19-20 : 175-290.
7. FOUCAULD, Charles de (2005). Lettres à sa sœur Marie de Blic, Paris, Le Livre Ouvert.
8. FOUCAULD, Charles de (2016). Correspondances avec les neveux et nièces (1893-1916), Paris, Karthala.
9. GORRÉE, Georges (1946). Les amitiés sahariennes du Père de Foucauld, 2 tomes, Paris, Arthaud.
10. HÉRISSON, René (1937). Avec le Père de Foucauld et le Général Laperrine. Carnets d'un saharien (1909-1911). Paris, Plon.
11. LEHURAUX, Louis (1946). Au Sahara avec le Père Charles de Foucauld. Paris, Éditions Saint-Paul.
12. PANDOLFI, Paul (1997). « Sauront-ils séparer entre les soldats et les prêtres ? L'installation du Père de Foucauld dans l'Ahaggar », Journal des Africanistes, 67, (2) : 49-71.
13. PANDOLFI, Paul (2006). Une correspondance saharienne. Lettres inédites du général Laperrine au commandant Cauvet. Paris, Karthala.
14. PANDOLFI, Paul (2016). « 1913. Foucauld et Ouksem voyagent en France », Le Saharien, 217-218 : 50-71.